اسم الدرس : تفسير سورة محمد (٣) | الآيات (٢٠-٢٨)

تصنيف الدرس : مجلس تفسيـر

الدرس الثالث

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

أهلاً بكم في الحلقة الثالثة من دورة بصائر في وقفات مع سورة محمد.

كنا قد توقفنا في الوقفة الثانية عند قوله تعالى: {وَيَقولُ الَّذينَ آمَنوا لَولا نُزِّلَت سورَةٌ}

أريد منكم مراجعة الحلقات السابقة بحيث يكون ترتيب الكلام متصل مع بعضه، فقد تحدثنا عن المعنى العام للسورة، وذكرنا المواضيع التي تكررت، وتكرار كلمة الأعمال، ووضع سورة محمد -صلي الله عليه وسلم- في المصحف أو سورة القتال، ومحاولة إيجاد رابط بين مجموعة "آل حم" -السبع سور- وسورة محمد ثم الفتح ثم الحجرات، بحيث نكون قد بدأنا السورة ولدينا نظرة شاملة لمكانها في القرآن الكريم، وأيضًا للموضوعات التي تتحدث عنها السورة.

توقفنا بعدما تحدثنا عن جهد الكافرين في الصد عن سبيل الله، ثم جهد أهل الإيمان في مقاومة الكفار، ثم بدأ الحديث عن المنافقين أنهم يستمعون، وبداية الكلام قلنا شيئًا عجيبًا جدًا، ففي بداية الحديث عن المنافقين كانوا في مكان وهو آخر مكان تتوقع أن يكونوا فيه، أين؟ في مجلس النبي -صلى الله عليه وسلم-! يتظاهرون أنهم يستمعون لحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم بعد ذلك إذا خرجوا من مجلس النبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا: "ماذا قال آنفًا؟" يدّعون أنهم لم يفهموا شيئًا، بحيث تكون مهمتهم إلقاء الشبهات والريبة في قلوب أهل الإيمان لكن الله -عز وجل- ثبّت أهل العلم، وأهل الإيمان.

قال الله -عز وجل-: {وَيَقولُ الَّذينَ آمَنوا لَولا نُزِّلَت سورَةٌ}[محمد:٢٠]

والفعل "يقول" بصيغة المضارع؛ فما علاقة هذه الآية بما قبلها؟

بعض أهل العلم حاول أن يجد ترابطًا، وهذا الترابط حسب المقصود ب "الَّذينَ آمَنوا".

" فمن هم الذين آمنوا؟" قد يقول أحدهم ماذا تقصد؟ {الَّذينَ آمَنوا} كلمة واضحة، فالذين آمنوا **هم المؤمنون!** بالفعل القول الأشهر أنهم أهل الإيمان.

والبعض الآخر قال: {الَّذينَ آمَنوا} هم الذين **ادّعوا الإيمان**، وهم المنافقون الذين قد حضروا مجلس النبي -صلى الله عليه وسلم- وتظاهروا أمامنا أنهم مؤمنون، يدعون أنهم مؤمنون، ويقولون {لَولا نُزِّلَت سورَةٌ} وإن كان هذا القول بعيدًا ويعتبر مرجوحًا.

وهناك من حاول أن يجمع بين القولين و قال {الَّذينَ آمَنوا}:

تضم الفريقين لأنهم كانوا أمامنا و في مجلس النبي -صلى الله عليه وسلم- و**كانوا جميعا يدّعون الإيمان ظاهريًا** والكل يقول:

{لَولا نُزِّلَت سورَةٌ} قالها أهل الإيمان حقيقة، وقالها الذين ادّعوا الإيمان وهم المنافقون.

فما الذي فرق بين الاثنين والفريقان طريقة حديثهم متطابقة؟

{ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فَإِذا أُنزِلَت سورَةٌ مُحكَمَةٌ وَذُكِرَ فيهَا القِتالُ رَأَيتَ}

حدث تمايز بعدما نزلت آيات القتال، ونزلت سورة محكمة ذكر فيها القتال. إذًا الجميع يتساوى في القول -نسأل الله السلامة والعافية-، ففي وقت الأمنيات نتمنى جميعًا أن ننصر الدين، وقت الأمنيات أي ساعة الادعاءات، فالكل يدعي و الكل يتكلم، لكن العبرة تكون بالأعمال.

يقول الله: {فإذا أنزلت سورة محكمة وَذُكِرَ فيهَا القِتالُ} دائما عند القتال، والهجرة كما ذكر الإمام قتادة في تفسير قول الله تعالى: {ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ المؤمِنينَ عَلى ما أَنتُم عَلَيهِ حَتّى يَميزَ الخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}[آل عمران:١٧٩]

قال قتادة "كيف يميز الخبيث من الطيب؟"

"قال بالقتال و بالهجرة". "فإنها تتنزل أوامر عملية، أوامر شديدة على النفوس لا يطيقها إلا أهل الإيمان، هذه الأوامر تميز الصفوف، تبين معدن الناس ويحدث فصل بينهم بهذه الأوامر، وهكذا فعلت سورة محمد " سورة القتال" بها حصل تمايز في الصفوف حين أُمر بالقتال."

أيضًا يقول ابن عطية مبينًا علاقة هذه الآية بما قبلها:

هذا ابتداء وصف حال المؤمنين، إذاً هو اختار أن هذا قول أهل الإيمان، حقيقةً في جدهم، اجتهادهم في دين الله، و حرصهم على ظهورهم، وعلى حال المنافقين من الكسل، والفشل، والحرص على فساد الدين وذلك أن المؤمنين كان حرصهم يبعثهم على تمني الظهور وتمني قتال العدو وفضيحة المنافقين.

و قال معلقا علي المؤمنين: "كانوا يأنسون بالوحي و يستوحشون إذا أبطأ"

فيكون قوله تعالى {لَولا نُزِّلَت سورَةٌ}

أي اجتهد في المعاني التي نزلت من القرآن، و جاهد وحصّل معاني، فدائمًا ما يبحث المؤمن عن معنىً جديد، مثلًا إن حصّل معنىً في الخشية، فيبحث عن معنىً في التوكل، ولو حصّل معنى في التوكل، فيبحث عن معنى في الإنابة، أو حصّل إقامة الفروض في المسجد، فيبحث عن قيام الليل، ثم جلسة الضحى، فالعمل في الدعوة إلى الله، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم طلب العلم، فالمؤمن يتطلع دائمًا للازدياد لا يتوقف عند حد معين، لذا جاءت بصيغة المضارع {وَيَقولُ الَّذينَ آمَنوا} الأمر عندهم متجدد، ودائمًا ما يبحثون عن زيادة إيمانهم.

و قال بعض أهل العلم: "هذا له علاقة بمجلس النبي -صلي الله عليه وسلم- فكان حال أهل الإيمان والمنافقين أنهم جالسون في المجلس؛ فالاستفادة الحقيقية من العلم أن تطلب العمل".

هناك من يكتفي بالعلم ويكتفي بالكلام قائلًا: العلم لأجل العلم، والفكر لأجل الفكر ويحصل معلومات من أجل تحصيل المعلومات فقط، ولكن المعلومات لابد أن تتحول إلى أعمال، لذلك من الكتب الجميلة للخطيب البغدادي: "اقتضاء العلم العمل."

أي أن العلم يقتضي أن تعمل، ما قيمة علم وأنت تُعرض عما يقتضيه هذا العلم من عمل!

قال الله تعالي: {مَثَلُ الَّذينَ حُمِّلُوا التَّوراةَ ثُمَّ لَم يَحمِلوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحمِلُ أَسفارًا}[الجمعة:٥]، كتب كثيرة، وأسفار لكنها على الظهر لم يستفد منها بشيء.

إذًا المجلس الناجح بالنسبة لك هو {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}[الزمر:١٨] يُتبِعون الاستماع بالتطبيق العملي، لذلك هذا هو الفرق بين الإغراق في التفلسف وبين القرآن.

فالقرآن أنتج جيل الصحابة، جيلٌ يعمل، وغيّر العالم بالفعل.

لكن إشكالية التفلسف الزائد، وإعمال الفكر بعيدًا عن الواقع يؤدي إلي حالة من الترف الذهني لا يكون لها أثر في واقع الناس.

لذلك من الممكن أن يزداد شخص في المعلومات، ولا يظهر أثرًا لهذه المعلومات -لا تستحق أن نسميها علمًا- على خشوعه، وعلى حاله، على صلاته، وعلى معاملاته حتى على علاقته مع الناس.

إذًا الإستجابة الحقيقية لمجلس النبي -صلى الله عليه وسلم- تكون من خلال البحث عن ماذا نفعل لنصرة هذا الدين؟

العجيب أن الإمام الطبري يقول في قوله تعالى: {لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ}: ((أي سورة فيها القتال))

أي أنهم قد طلبوا سورة فيها القتال، و كأن أهل الإيمان يعلمون ما تتوجبه المرحلة. نحن في المرحلة المدنية، قد انتقلنا من المرحلة المكية للمدنية، وقد ظهر أعداء، وظهر الكفار بشراسة، والمنافقون ظهروا بالصد عن سبيل الله.

وكأن أهل الإيمان يعلمون أن الواجب في هذه المرحلة القتال، فتمنوا أن يُفرض القتال، فاستجاب الله لأمنياتهم.

قال الله تعالى:

{ فَإِذا أُنزِلَت سورَةٌ مُحكَمَةٌ وَذُكِرَ فيهَا القِتالُ رَأَيتَ الَّذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ يَنظُرونَ إِلَيكَ نَظَرَ المَغشِيِّ عَلَيهِ مِنَ الموتِ}

وبذلك يكون المعنى **الأول**: مدى شوق أهل الإيمان لنزول القرآن، وأن المؤمن دائمًا يرجو أن يتنزل القرآن لأنه متشوق لمعاني القرآن.

تجد شخصًا يتمنى أن يتدارس سورة ويقول: "أنا تعايشت مع سورة الفتح مثلًا، و تدارستها من أكثر من تفسير، وصليت بها، وحاولت أن أطبق معانيها، أتمنى مدارسة سورة أخرى؛ فاقترح علي سورة، فهو دائمًا يبحث عن معان متجددة من القرآن ليعيشها، ويطبقها.

كنّا قد ذكرنا علاقة المجلس النافع وكيف يستفيد الإنسان من المجلس بالتطبيق؛ فقال ربُنا -سبحانه وتعالى-:

{فَإِذا أُنزِلَت سورَةٌ مُحكَمَةٌ وَذُكِرَ فيهَا القِتالُ رَأَيتَ الَّذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ يَنظُرونَ إِلَيكَ نَظَرَ المَغشِيِّ عَلَيهِ مِنَ المَوتِ}

فمن الطبيعي ألا يُعرف المنافق، هو أصلًا يتخفى، فهو يختبئ كما لو كان يعيش في النفق، والذي في قلبه مرض أنت لا تستطيع النظر إلي هذا المرض. كيف تظهر أمراض المنافقين؟ كيف يظهر المنافق على حقيقته؟

هناك درس أرجو أن ترجعوا إليه -هو طويل- خاص بهذا الجانب اسمه "متي يتكلم، يظهر المنافقون" مرفوع على موقع "الطريق إلى الله"، وموقع "إنه القرآن".

حاولنا في هذا الدرس أن نستقصي من خلال المصحف متي ظهر المنافقون علي حقيقتهم؟

لأن المنافق دائمًا مستتر، ولكن تحدث أحداثًا، ويقدر الله أقدارًا يظهر فيها المنافق، وتراه رأي العين. لذا قال الله تعالى هنا: {رَأَيتَ} بعدما كان مختبئًا في المجلس و غير ظاهر تراه الآن بعينك.

متى؟

في الفروض الشاقة، عندما ينزل فرض فيه مشقة، وبذل، وتضحية، يظهر المنافق ويقول: "لن أكمل معك"

لذلك تكرار {وَالَّذينَ آمَنوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَآمَنوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ}[محمد:٢]

فهناك أشخاص اختارت أن تكمل في هذا الطريق مهما ظهر فيه من مشقة ومتاعب، اختار الانضمام لجيش محمد -صلي الله عليه وسلم- مهما ظهر ومهما بدا من مكاره، ومتاعب في هذا الطريق هو مستمر ينتظر الأجر من الله.

و قد ذكرنا من المعاني الموجودة في السورة مسألة الاستمرار؛ فقال الله -عز وجل-: {وَإِن تَتَوَلَّوا يَستَبدِل قَومًا غَيرَكُم}[محمد:٣٨]

إذا انصرفت فهناك غيرك من سيكمل في هذا الطريق. فلابد أن تكمل في الطريق.

{ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}[محمد: ٣٣] من معانيها: إياك أن تبدأ في عمل ثم تتوقف فيه.

{وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ}[محمد:٢] أن تؤمن بأي شيء جاء ونزل على النبي -صلى الله عليه وسلم-.

حينما تستقرئ السورة وتعيش مع السورة؛ تجد أنك لابد أن تستمر في الأعمال، إياك أن تتوقف في وسط الطريق وهذا إشكال؛ أن تنام وأنت في منتصف الطريق.

يقول الله -تبارك وتعالى-: {فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}[محمد:٢٠]، إشكالية المرض الذي في القلب أنه لابد أن يؤثر على العمل، كما أن المرض في البدن لا بد أن يؤثر على عمل الإنسان، وعلى حياة الإنسان، كذلك أمراض القلب تؤثر على الطاعة؛ وتقعد الإنسان، كما أن الإنسان المريض ضعيف، كذلك صاحب القلب المريض إنسان ضعيف،لا يستطيع أن يقوم بالأعمال التي يطلبها الله منه؛ فتجده يتوقف عند أي عمل به مشقة أو تضحية {رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}

{فَأَوْلَىٰ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ}[محمد:٢١] ما معنى هذه الآية؟

اختلف العلماء، هل نقول: {فَأَوْلَىٰ لَهُمْ} ثم نقف على رأس الآية، ثم نقول: {طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ}، وهذا القول الأشهر.

وقيل معنى {فَأَوْلَىٰ لَهُمْ}: دعاء عليهم بالويل، أو أن يقترب منهم ما يكرهون؛ فكانت العرب عندما تقول لإنسان "أولى لك"، أي تدعوا أن يليك -يكون بجوارك- ما تكره، فكلمة "أولى لك" دعاء على الإنسان أن يكون كل ما يكره قريبًا منه، وكأنهم عندما ابتعدوا عن نصرة الدين والجهاد خوفًا من المكاره اقتربت منهم المكاره -والعياذ بالله-.

فبذلك هو دعاء عليهم لأنهم أعرضوا عن القتال، ثم قال الله {طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ}.

إذا اخترنا هذا المعنى بالوقوف على {فَأَوْلَىٰ لَهُمْ}، ثم استئناف {طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ}.

العلماء قالوا: أن {طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ}، إما قبلها كلمة محذوفة، أو بعدها كلمة محذوفة. لو أخذنا بالقول بأن قبلها كلمة محذوفة، قالوا "كان قولهم قبل فرض القتال {طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ} و أما بعد فرض القتال {فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ}" و لكنهم كانوا من الكاذبين.

أو "أنهم كانوا يقولون قبل فرض القتال أمرُنا {طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ}"

أي إذا قال أحدهم: "إذا طلبنا منك شيئًا تنفذه؟"

فيقول: طبعا... {طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ}، إذا قلت كلمة سأنفذها، {فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ}.

أو : {طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ}، ثم بعدها كلمة محذوفة: {طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ} "خير لكم من كثرة الكلام و كثرة الأماني الكاذبة" {فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ}

يعني أن تطيع، وتتكلم بكلام تستطيع أن تنفذه خير من كثرة الأماني الفارغة.

والبعض الآخر قال: يمكنك أن تصل الكلام فتقول {فَأَوْلَىٰ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ}، أي: كان الأولى بكم أن تطيعوا الله و تكفوا عن الأماني الكاذبة.

وهنا الإشكال أن الإنسان أحيانا يتمنى و يظن في نفسه أنه يستطيع أن يفعل الأعمال و يقول:

"أتمنى أن يُفتح باب لنصرة الدين، والجهاد، أتمنى أن أقاتل في فلسطين، وحتى على المستوى البسيط، لو أن هناك من يحفّظني القرآن، لو يُفتح لي باب في طلب العلم، المشكلة أن أبواب طلب العلم مغلقة."

وإذا قيل له: "فُتح باب طلب العلم"؛ يبدأ في التحجج، والأمنية التي كان يتمناها تسقط عند الواقع. عندما تُقَابل الأماني بالواقع يسقط كثير من الناس -والعياذ بالله-.

{فَأَوْلَىٰ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ }

هناك شيئان مهمان جدًا إذا تحققا في حياتك ستتغير حياتك في علاقتك بالله وهما **العزم، والصدق**.

أولًا: العزم وهو أن تعزم في الطريق إلى الله وأن تأخذ الأمور بعزم، وقوة، وحزم، و ليس بنوع من التكاسل، و التراخي، أي تتعامل مع الله -سبحانه وتعالى- على أن هذا الأمر ليس فيه تراجع، فيقول أحدهم: لماذا يصعب عليّ صيام الست من شوال على الرغم من سهولة صيام رمضان؟

لأن هذا الشخص يتعامل مع صيام الست من شوال علي أنه اختياري -هو نفل فعلا-، فيستيقظ في شوال يقول سوف أصوم ويأتي في منتصف اليوم يفطر، وينوي الصيام ثاني يوم، لكن في رمضان -لأن فكرة الاختيار لم تأتِ إلى ذهنه- كان الصيام سهلًا.

فعندما يأخذ الشخص الأمر بقلة عزم لا يستطيع الإكمال، ولا المسير.

كنا قد شرحنا ذلك في توبة الصحابي كعب بن مالك في غزوة العسرة، كان كلما همَّ بالخروج للغزوة تحدثه نفسه: "أنا قادر علي ذلك إن أردت، سأنطلق في الغد". لكن الإنسان عندما يأخذ الأمور بعزم يكمل.

ثانيا: الصدق، فوجهتك واضحة، أنت تريد رضا الله وليس شيئًا آخر.

النبي -صلي الله عليه وسلم- قال عن الرجل الذي طلب الشهادة دون الغنيمة و قال: "أريد أن أقتل بسهم ها هنا فأُقتل فأدخل الجنة"

قال عنه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (صدق الله فصدقه الله)[1]. أن تكون صادقًا فيأتيك مرادك حيثما أشرت بإصبعك، هذا الصحابي أشار بأصبعه إلى رقبته وقال: "أريد أن أُضرب بسهم ها هنا"، فأُصيب بسهم لم يتجاوز موضع أصبعه.

{فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ} لكان خيرًا لهم من الكثير من الكلام .

الإشكال أن أحيانا يكون لدينا نقص عزيمة، و نقص صدق، فنحن نحتاج إلى الاثنين.

{فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}[محمد: ٢٢]

قيل: توليتم عن الجهاد، ونصرة الدين، ونصرة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

{فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ} ماذا يحدث إذا أعرضنا عن تطبيق الشريعة، ونصرة الدين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ ما الذي سيحدث؟

{أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}.

هذا ما سيحدث؛ أن الأمة عندما لا تنشغل بأعدائها تنشغل بنفسها، أن الأمة عندما لا توجه البأس، والقوة، والعتاد للأعداء؛ نجد تناحرًا بين الناس مع بعضهم البعض.

{أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ} علاقتنا تتقطع بسبب أننا لم نجاهد الأعداء، وهذه نقطة خطيرة جدًا.

مثال:

تجد مثلاً أن هناك شخص آتاه الله العلم، و لديه القدرة علي رد الشبهات علي اليهود، والنصارى، والملحدين، والعلمانيين، وعنده قدرة من "النخب المثقفة" وتجده مشغولًا بإخوانه،

---

[1] عن [شداد بن الهاد]: أنَّ رجلًا من الأعرابِ جاء إلى النَّبيِّ ﷺ فآمن به واتَّبعه ثمَّ قال أهاجِرُ معك فأوصى به النَّبيُّ ﷺ بعضَ أصحابِه فلمَّا كانت غَزاتُه غنم النَّبيُّ ﷺ فقسَّم وقسم له فأعطى أصحابَه ما قسم له وكان يرعى على ظهرِهم فجاء به إلى النَّبيِّ ﷺ فقال ما هذا قال قسمتُه لك قال ما على هذا اتَّبعتُك ولكن اتَّبعتُك على أن أُرمى إلى ها هنا وأشار إلى حلقِه بسهمٍ فأموتَ فأدخلَ الجنَّةَ فقال إنْ تصدُقِ اللهَ يصدُقْكَ فلبثوا قليلًا ثمَّ نهضوا إلى قتالِ العدوِّ فأُتِيَ به إلى النَّبيِّ ﷺ يُحملُ قد أصابَه سهمٌ حيثُ أشار فقال النَّبيُّ ﷺ أهو هو قالوا نعم قال صدق اللهَ فصدقه ثمَّ كفَّنه النَّبيُّ ﷺ في جُبَّتِه الَّتي عليه ثمَّ قدَّمه فصلَّى عليه وكان ممَّا ظهر من صلاتِه اللَّهمَّ هذا عبدُك خرج مهاجرًا في سبيلِك فقُتل شهيدًا أنا شهيدٌ على ذلك

المنذري (ت ٦٥٦)، الترغيب والترهيب ٢٦٦/٢ • [إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربها] • أخرجه النسائي (٦٠/٤)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٥٤٥/٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٧١/٧) مطولاً.

مشغولًا بأقرانه، كل السهام التي في جعبته يوجهها لأهل الإيمان، ينتقد الداعية فلان، وينتقد العالم فلان، وينتقد جماعة فلان.

النقد جميل و أمر جيد لأنه يؤدي إلى الإصلاح، وأن نغير من أنفسنا إلى الأفضل، لكن هذا جزء فأين بقية جهدك؟ أين جهدك لهدم العلمانية؟ أين جهدك لهدم الإلحاد؟ أين هذا الجهد !؟

تجد أننا أصبحنا مشغولين بأنفسنا، هذه إشكالية كبيرة جدًا حينما لا توجه طاقة المسلمين إلى الاعداء؛ قطعًا سيؤدي هذا إلى التناحر.

ومن يدرس التاريخ بداية من عهد سيدنا عثمان بن عفان في الجزء الثاني من حكمه، إذا كانت فترة حكمه مثلًا اثني عشر سنة، كانت السنوات الست الأولى من حكمه فيها انشغال بالقتال، وعندما توقف القتال حدث انشغال الناس ببعضهم البعض، ومع انتشار الفتوحات لم يكن هناك نوع من تثبيت الدين، وتربية هذه الأمم التي تُفتح، فانشغلت الأمم ببعضها البعض، وحصل تقاتل، وتناحر؛ فأصبحنا نأكل في بعضنا البعض كالجسد الذي يأكل بعضه بعضا -والعياذ بالله-.

وهنا خطورة أن تترك شريعة واحدة من شرائع الدين، فما بالك بترك أكثر من شريعة؛ بالتأكيد سيحدث إفساد في الأرض وقطع للأرحام.

وقال بعض أهل العلم في {إِنْ تَوَلَّيْتُمْ}

أي إن أصبحتم ولاة. فإذا أصبحتم ولاة، وأنتم تحبون الدنيا لابد أن تفسدوا في الأرض.

أي وآل يتولى على المسلمين وهو من أهل حب الدنيا لا من أهل نصرة الدين لابد أن يفسد في الأرض، وأن يقطع الأرحام -والعياذ بالله-.

{فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أولئك الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وأعمى أَبْصَارَهُمْ}[محمد:٢٢-٢٣] -والعياذ بالله-.

الـذين يعرضـون عـن تطبيـق شـرع الله، وكلمـا نزلـت آيـة فيهـا أمـر مـن أوامـر الله أعرضـوا، هـؤلاء – والعيـاذ بـالله– عقوبـة لهـم أن يصـابون بالصـمم و العمـى، لمـاذا؟ هـو مـن اختـار، كمـا قـال ربنـا –سبحانه وتعالى– في سنته مع المعرضين: {نُوَلِّهِ مَا تولى}.

{وَمَـن يُشَـاقِقِ الرَّسُـولَ مِـن بَعْـدِ مَـا تَبَـيَّنَ لَـهُ الْهُـدَىٰ} انتبـه إلى {مِـن بَعْـدِ مَـا تَبَـيَّنَ لَـهُ الْهُـدَىٰ} فقد تكررت في السورة {وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تولى}[النساء:١١٥]

هـو مـن اختـار أن يعـرض كلمـا تنزلـت آيـة، ولا يريـد أن يسـمع فيصـاب –والعيـاذ بـالله– {فَأَصَمَّهُمْ وأعمى أَبْصَارَهُمْ}

كيف يخرج من هذه الحالة؟!

{أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن}[محمد:٢٤]

الخروج من حالة الخوف من الجهاد.

الخروج من حالة الكسل في نصرة الدين.

الخروج من حالة عدم تطبيق ما تعلم.

يكون بتدبر القرآن.

{أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}

إذًا المانع الأساسي من تدبر القرآن هو وجود أقفال على القلوب.

إذًا هناك تعارض فهناك إنسان يتدبر، وهناك إنسان آخر على قلبه أقفال –والعياذ بالله–.

قـال بعـض أهـل العلـم فيهـا معـنى لطيـف جـدًا: "كيـف تعرضـون عـن الجهـاد، و نصـرة الـدين، وعـن الأمـر بـالمعروف، والنهـي عـن المنكـر، والـدعوة إلي الله؟ كيـف تعرضـون عـن هـذه الأمـور، وهذه الأمور مبثوثة في القرآن، ومن تدبر القرآن اتضح له هذا الأمر؟!"

إن من القواعد الأساسية التي جاء بها القرآن أن تنصر دين الله بكل ما تملك، وأن تجاهد في سبيل نصرة دين الله بكل ما تملك، وأن تبذل أغلى ما تملك لنصرة دين الله -سبحانه وتعالى-، وهذا الأمر مبثوث في القرآن؛ فالذي يتدبر القرآن يجد هذا الأمر واضحًا.

مسألة أن تنصر دين الله {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ}[محمد:٢٠] يشتاقون إلى نزول الوحي هذا الأمر مبثوث في القرآن؛ فالذي يعرض عن نصرة الدين لديه نقص في تدبر القرآن {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} - من لديه قدرة يراجع تفسير الإمام البقاعي أبدع في تفسيرهذه الآية باستفاضة-.

{أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} لم يقل سبحانه "أم على قلوب الأقفال" ولكن قال {أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[محمد:٢٤]

لماذا قال أقفالها و لم يقل أقفال؟

قال بعض أهل العلم: "نسبة الأقفال إليهم إما للتناسب، أو للتلازم."

أي المعنى إما **للتناسب**: أي القفل مناسب للقلب، كل قلب له قفل معين، هذا قفل بسبب المعصية، وهذا بسبب الإصرار، وآخر بسبب الإعراض، وهذا بسبب شهوة، و هذا بسبب شبهة.

أو **للتلازم** أي أصبح القفل - والعياذ بالله- ملازمًا له في كل الأحوال، مثلاً:

- يمر بمرض فلا يتأثر فالقفل ملازم له.

- يمر بابتلاء عظيم، القفل ملازم له فلا يتأثر.

- صديقه يموت لا يتأثر.

أصبح القفل ملازمًا له، قد يقول قائل: معنى هذا أنه ليس عليه سبيل وأنه لن يتغير؟!

فنقول لا، الله -سبحانه وتعالى- قادر على كل شيء، ولكن لابد أن يطّلع الله عليه فيجده يجاهد لأجل نزع هذا القفل.

هـذا الشـخص قـد تعـب كـي يصـنع هـذا القفـل، أي مـرّ بآيـات في القـرآن، وآيـات كونيـة، وأحـداث، وابـتلاءات، وبـالرغم مـن ذلـك أعـرض عـن كـل هـذا؛ فعاقبـه الله بهـذا القفـل، وحـتى ينزع هذا القفل لابد من مجاهدة.

النبي -صلى الله عليه وسلم- كـان يقـرأ هـذه الآيـة و كـان يجلـس شـاب ذكـي فعنـدما قـال النـبي -صلى الله عليه وسلم-: {أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}

قـال: "يـا رسـول الله تكـون هـذه الأقفـال موجـودة حـتي ينزعهـا الله -سـبحانه وتعـالى-"، وكـان سيدنا عمـر بـن الخطـاب حاضـرًا فقـال "فمـا زال هـذا الشـاب في نفـس عمـر -وضـعه في ذهنـه - حتي وُلِّي عمر فاستعمله" أي جعله في منصب على المسلمين.

كـان سيدنا عمـر يحـب أهـل القـرآن، وكـان يجلـس مجلـس تـدبر مـع أهـل القـرآن، وكـان يـأتي بـابن عباس في المجلس لأنه ممن فُتح عليهم في فهم كتاب الله.

الشاهد أن هذه الأقفال قد تنزع لكن لا بد من مجاهدة واستعانة بالله -سبحانه وتعالى-.

{إِنَّ الَّـذِينَ ارْتَـدُّوا علـى أَدْبَـارِهِم مِّـن بَعْـدِ مَـا تَبَـيَّنَ لَهُـمُ الْهُدَى}[محمـد:٢٥] قلنـا أن هـذا المقطـع سيتكرر في آخر السورة؛ لأن هناك أناس تبين لهم الهدى وأصروا -والعياذ بالله-.

{إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى} فما سبب ذلك ؟

{الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ}

أولًا من هؤلاء؟

هناك خلاف بين أهل العلم هل هؤلاء فريق ثالث؟

قلنا في بداية السورة أن السورة تتحدث عن ثلاث طوائف معاندة وهم:

- كفار محاربون صادين عن سبيل الله.
- منافقون في قمة الخبث يجلسون في مجلس النبي -صلى الله عليه وسلم-.

- هناك أهل الكتاب من اليهود، و النصارى الذين أعرضوا عن الدين بعدما تبين لهم الهدى، وتبين لهم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- على حق.

وكان هناك تعاون من اليهود مع المنافقين في المدينة، و تعاون من اليهود مع المشركين في مكة، كل هؤلاء يحاولون هدم هذا الدين.

فبعض أهل العلم قال: "نزلت هذه الآية في اليهود" {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى} أي من بعد ما ظهرت علامات صدق نبوة النبي -صلى الله عليه وسلم- لهم.

وقال بعض أهل العلم: "المقصود المنافقون وأنهم أصبحوا كفارًا"، انتقلوا من النفاق الأصغر إلي النفاق الأكبر، وأعرضوا عن دين الله -سبحانه وتعالى-.

ذكرنا الخلاف هنا لأنه له فائدة معنا في الآية القادمة،

{إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى}

كيف لإنسان يتضح له الهدى ويرى الهدى ثم يعرض؟

يمكن أن تستغرب، وتحدث نفسك، وتقول حتمًا لا يعلم، لكن هناك أناس قد يرون الحق، ويتبين لهم الحق ثم يعرضون عنه -والعياذ بالله- كيف يحدث ذلك؟

{الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ}

{سوّل} هذه قصة طويلة ومعنى مبثوث في القرآن ، جاء في مواطن مع سيدنا يعقوب و أولاده في سورة يوسف.

ومع السامري في حديثه عن نفسه {وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي}[طه:٩٦]

وهنا {الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ}[محمد:٢٥]

ثلاثة مواطن في القرآن.

تأتي "سوّل" بمعني الاسترخاء، أي أن الإنسان يبدأ بالتعامل بعزم، وحزم، ثم يأتي الشيطان يهون له الأمور؛ فيسول الشيطان له ويقول الصلاة في المسجد ليست مهمة، ثم الصلاة

ليست مهمة، وهكذا، فيبدأ مع الأشياء التي كان يتعامل معها بحزم وبعزم يتعامل معها بنوع من الاسترخاء فيترك شيئًا، فشيئًا، فشيئًا حتي يستحوذ عليه الشيطان، و عندما يحاول الإنسان الرجوع، يرد عليه الشيطان:

{وَأَملى لَهُم} أي ما زال هناك وقت، سواء كان الله قد أطال لهم العمر وهم في غفلة، أو أن الشيطان أغراهم وقال لهم: ما زال هناك وقت للتوبة، لازلت في مرحلة الشباب، لازلت في الثانوية العامة انتظر حتى تدخل الجامعة، فإذا دخل الجامعة؛ انتظر حتى تتخرج من الجامعة، فإذا تخرج؛ انتظر حتى تعمل، ثم انتظر حتى تتزوج، ثم انتظر حتى تُنجب .....إلى أن يموت -والعياذ بالله- {أَلهاكُمُ التَّكاثُرُ حَتّى زُرتُمُ المقابِرَ}[التكاثر:١-٢].

{ذلك} تكررت، وهي من معالم هذه السورة، -وأيضًا سورة الحجر-؛ لأن الإنسان عندما يكون في مشهد القتال، ومشهد الخذلان للكفار، والإعراض، والإضلال قد يتساءل: لمَ فعل الله بهم هكذا؟

فتأتي "ذلك التعليلية" للإجابة على مثل هذه التساؤلات.

{ذلِكَ وَلَو يَشاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنهُم}[محمد:٤] من يرى أهل الإيمان يُعذبوا من الممكن أن يتساءل؛ فتأتي "ذلك" دائمًا للأسئلة التي تدور في ذهن المؤمن ويريد لها تفسيرًا، لماذا ارتدوا؟

{ذلِكَ بِأَنَّهُم قالوا لِلَّذينَ كَرِهوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطيعُكُم في بَعضِ الأَمرِ وَاللَّهُ يَعلَمُ إِسرارَهُم}[محمد:٢٦]

هناك طائفة -فريق- ذهبت لأناس -فريق آخر- كرهوا ما نزل الله، و قالت لهم: {سَنُطيعُكُم في بَعضِ الأَمرِ}

إذًا وصف هذا الفريق -الثاني- هو أنه يكره ما نزَّل الله! و{نزَّل} تفيد التدريج، كل أمر ينزل من الله -عز وجل- هو كاره له، كل الأوامر كرهها، إذًا ثمة فريق اسمه {كَرِهوا ما نَزَّلَ اللَّهُ} ، وأيضًا {كَرِهوا ما نَزَّلَ اللَّهُ} تكررت في السورة كثيرًا.

السورة تتحدث عن جو من العند، والإعراض، وأن هذا الفريق يكره أهل الإيمان.

ومن المواطن الفريدة التي جمعت بين {كَفَروا وَصَدّوا عَن سَبيلِ اللَّهِ} هنا بل هي آية تعتبر بحاجة إلى استقراء، فهي الآية الوحيدة التي جاء فيها كفروا، وصدوا، وشاقوا الرسول.

{إِنَّ الَّذينَ كَفَروا وَصَدّوا عَن سَبيلِ اللَّهِ وَشاقُّوا الرَّسولَ مِن بَعدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيئًا وَسَيُحبِطُ أَعمالَهُم}[محمد:٣٢]

فهم جمعوا كل أنواع الاعراض والصد عن سبيل الله -والعياذ بالله-.

يتضح هنا أن هناك فريق ذهبوا لفريق وقالوا لهم سنطيعكم ليس في كل شيء، ولكن سنطيعكم في بعض الأمر عندما قالوا: {سَنُطيعُكُم في بَعضِ الأَمرِ} كان هذا سبب في الردة وأن الشيطان قد خدعهم.

وهذه هي المشكلة، أن من يطيع اليهود في بعض الأمور، أو المنافقين في بعض الأمور، ويطيع المنافقين في بعض الشبهات.

ففي البداية يخدعك و يقول: "لا أريدك أن تترك الدين كله، فقط جزء من الدين، فتبدأ تتخلى عن جزء صغير وللأسف من يتخلى عن جزء يتخلى عن الآخر، لو أطعتهم في القليل ستطيعهم في الكثير، فتركك لجزء سيتبعه جزء آخر، {وَدّوا لَو تُدهِنُ}[القلم:٩].

إلي أن تصل إلى {وَإِذًا لَاتَّخَذوكَ خَليلًا}[الإسراء:٧٣]

الله -عز وجل- يقول: {وَلَولا أَن ثَبَّتناكَ لَقَد كِدتَ تَركَنُ إِلَيهِم شَيئًا قَليلًا * إِذًا لَأَذَقناكَ ضِعفَ الحَياةِ وَضِعفَ المَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَينا نَصيرًا}[الإسراء:٧٤-٧٥]
لو اتبعتهم في القليل {لَأَذَقناكَ ضِعفَ الحَياةِ وَضِعفَ المَماتِ}

في هذه الآية من سورة الإسراء درس كامل لتفصيلها.

السؤال هنا: من هم الذين ذهبوا إلي الفريق الذي كره ما نزل الله؟

يقول العلماء:

*"اليهود قالوا للمنافقين سنطيعكم في الحرب".

*أو "أن المنافقين هم من قالوا لليهود سنطيعكم في الحرب".

*أو "أن اليهود هم من قالوا للمشركين سنكون معكم في غزوة الأحزاب".

*أو "المشركين قالوا لليهود نحن سنطيعكم."

هذا التصنيف الرباعي كله قيل. الشاهد هنا أن هذه منظومة، وفيها الكل يطيع أوامر الآخر بهدف هدم الدين، و ترك التوحيد، وترك نصرة الدين، وترك نصرة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

فهم هذه الآية الكريمة صعب و لولا ضيق الوقت لكنت استفضت في الشرح و الشاهد هنا أن هناك مخططات قوية تحدث؛ لذلك قال الله في ختام الآية: {وَاللَّهُ يَعلَمُ إِسرارَهُم} و في قراءة {وَاللَّهُ يَعلَمُ أَسرارهم}

أسرار كثيرة وليس مجلس واحد، فهناك مجموعة قالت للأخرى نصنع مخططًا لهدم الدين، بعضهم قال في هدم الدين، وبعضهم قال في ترك التوحيد، وبعضهم قال في ترك نصرة الدين والقتال، وبعضهم قال في ترك نصرة النبي -صلى الله عليه وسلم-، الشاهد أنه كان هناك مخطط معين لهدم الدين، إما أن المنافقين قد اتفقوا مع اليهود، أو أن اليهود اتفقوا مع المشركين، أو أن المشركين اتفقوا مع اليهود. أياً كان فهناك ثلاث فرق في السورة وهم كفار، ومنافقين، وأهل كتاب و الثلاثة يريدون هدم الدين، يمكن التبديل فيما بين الثلاث فرق.

وبمجرد القول كان ذلك سبب في وقوعهم -والعياذ بالله-.

{ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ}[محمد:٢٦] كلمة خطيرة جدًا، أن تترك جزء من الدين {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ}.

كل هذه الآيات في هذه الصفحة بسبب إعراضهم عن القتال، ونصرة الدين في سبيل الله.

{فَكَيفَ إِذا تَوَفَّتهُمُ الملائِكَةُ يَضرِبونَ وُجوهَهُم وَأَدبارَهُم}[محمد:٢٧]

إنه منظر مخزٍ! الضرب علي الوجه، والضرب على الدبر.

تخيل أن حياة الآخرة تبدأ عند إنسان بالضرب علي الوجه، والدبر، تخيل أن إنسانًا بدأ حياته الجديدة بهذه الطريقة بالضرب على الوجه، والدبر!

كيف ستكون حياته في الآخرة؟!

وهذا كله لأنه ترك القتال، هو كان يخاف من القتال، من المكاره، فقال الله له: {فَأَولى لَهُم} الله قال له سيليك ما تكره.

كان يخاف من القتال، من الضرب {يَضرِبونَ وُجوهَهُم وَأَدبارَهُم} الآن سيُضرب من الملائكة، كنت ستقاتل البشر، الآن تُضرب من الملائكة، ولا تستطيع الفرار، الجزاء من جنس العمل. لماذا هذا العذاب المهين؟

{ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعوا ما أَسخَطَ اللَّهَ وَكَرِهوا رِضوانَهُ فَأَحبَطَ أَعمالَهُم}[محمد:٢٨]

{ذلِكَ بِأَنَّهُمُ} أي لم **يكتفوا بالقول** فقط بل {اتَّبَعوا ما أَسخَطَ اللَّهَ وَكَرِهوا رِضوانَهُ فَأَحبَطَ أَعمالَهُم}.

فهم لم يكتفوا بكراهية ما أنزل الله. هناك إنسان لا يريد أن يسمع، وهناك إنسان كاره للدين، وهناك من لا يريد أن يسمع، وكاره الدين، ويبحث عن أي شيء يغضب الله -عز وجل- ويفعله هذا هو الصنف الثالث العياذ بالله-.

{اتَّبَعوا} فيها تكلف، و مشقة، وبحثوا عن ما أسخط الله، أي شيء يغضب الله هو يفعله، وأي شيء فيه رضى الله لا يفعله.

{وَكَرِهوا رِضوانَهُ} "رضوان" هنا اختلف فيها العلماء، هل كره القتال، أم كره التوحيد، أم كره القرآن؟ أي شيء يرضي الله -عز وجل- هو كاره له.

هذا الصنف ملئ بالأضغان -والعياذ بالله- التي سوف تخرج وتخرجها لنا السورة وهذا ما سنعرفه بالتفصيل بإذن الله -عز وجل-. كيف أخرجت السورة هذه الأضغان التي بداخلهم؟

هذا ما سنعرفه في الحلقة القادمة.

سبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك، ونتوب إليك.